مُختَصَرٌ في الأُطر العامَّة لأطوار المأتم الحسيني

السيّدُ محمّدُ بن السيّدِ عليٍّ آل علويّ

صور الغلاف من تصوير
الفنان:
سيدباقر الكامل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على محمَّد وآله الطاهرين، واللعن الدائم على أعدائهم إلى قيام يوم الدين

مقدَّمة

تصدَّى بعضُ الباحثين للكتابة حول تاريخ وأطوار المآتم والمواكب الحسينية، وكانت أغلب البحوث والرسائل تأريخية تدوينية، أو اجتماعية، أو سياسية، ولا شكَّ في أنَّها قد أثرت المكتبة العلمية وأنعشت الفكر المعرفي بجليل ما طرحت ولطيف ما بحثت، ولكنَّ الذي يؤسفُ إليه، هو أنَّ استثمار تلك البحوث في فهم طبيعة الخلافات الدائرة بين أبناء الطائفة حول مصاديق الإحياء العاشورائي لم يكن بالقدر الذي تُرى نتائجُه، وذاك، ربَّما، لعدم كون الغايات ظاهرة في إرادة فهم مناشئ الخلافات، فكانت مطوَّلة في غاياتها ممَّا قد يصرف الذهن عن التركيز في أسباب التحوُّلات في مظاهر الإحياء العاشوري وتأثيراتها على الثقافة الجماهيرية العامَّة.

في هذا المختصر، أستعرِضُ المُباشرَات من نصوص وأفعال، التي رسمت الإطار الأكبر لكلِّ طور من أطوار الإحياء، واقتصرتُ في ذلك على ذكر شاهد أو شاهدين تجنُّبًا لانصراف ذهن القارئ عن الغاية المرجوة، وهي قراءة الأطوار في أطرها الأساسية، ثُمَّ التوسع في البحث لفهم الأسباب والمناشئ لكلِّ تحول، فيسهل فهم ما نحن فيه وكيفية معالجة ما يحتاج لمعالجة.

أُطرُ الأطوار

عندما يتحرَّك الإنسانُ في التطوير والانتقال بالشيء من حال إلى حال آخر، فإنَّه من المحتمل قويًّا أن يبتعد شيئًا فشيئًا عن الأصل، ومع مرور الوقت يكون ما هو عليه الساعة غير ما كان عليه في بدايته بشكل كبير يفقده الأصالة وصحَّة البناء، ونحن اليوم في زمن التحدِّيات العلمية والمعرفية، أصبحنا ننادي كثيرًا بضرورة التطوير في أداء المأتم الحسيني منبرًا وقصيدةً وموكبًا، وهذا أمر صحيح ومطلوب ونحن في أمسِّ الحاجة إليه، ولكن لا ينبغي أن نغفل الغاية الأصل من المأتم وخصوصًا الحسيني.

تتميَّزُ مظاهِرُ الإحياء العاشورائي بحركة تطويرية أراها في أُطرٍ ثلاثة، أوَّلُها الإطار الأصل الذي رسمه أهلُ بيت العصمة (عليهم السلام) في فترة ما بعد استشهاد الإمام الحسين (عليه السلام) إلى استشهاد الإمام العسكري (عليه السلام)، وثانيها هو الإطار البويهي، ثُمَّ الثالث والذي رسمته الدولتان الصفوية والقاجارية.

- الإطار الأوَّل:

تشكَّل الإطار الأوَّل من العناوين المأتمية المعروفة، أو التي لا يستغربها المجتمع، وهي البكاء وقراءة الشعر والنعي والإطعام، ثُمَّ كان التطوير في داخل نفس عناوين هذا الإطار، فحثَّ المعصومون (عليهم السلام) على التشبُّه بأهل العزاء في اللباس والأكل والشرب، وكذلك عدم السعي في حوائج الدنيا يوم عاشوراء، بل وعدم الانتشار للعمل أو طلب الأمور المعيشية، وهذا مناسب لحالة الحداد.

يعُدُّ الباحثون أنَّ المرحلة الأولى للمأتم الحسيني كانت بإقامة أهل البيت (عليهم السلام) مجالس العزاء في نفس ساحة القتال بكربلاء يوم العاشر من المحرَّم ٦١ هجرية، ويُقصد بمجالس العزاء ندبة السيدة زينب (عليها السلام) كما في قولها: «وا محمَّداه، صلَّى عليك مليك السماء، هذا حسين بالعراء، مرمَّلٌ بالدماء، مقطَّع الأعضاء، وا ثكلاه، وبناتك سبايا..» .

وقد قال الراوي: «فأبكت واللهِ كلَّ عدوٍّ وصديق» .

ثُمَّ تُعطف عليها خُطب الإمام زين العابدين والسيدة زينب (عليهما السلام) بما أبكى أهلَ الكوفةِ وأهلَ الشامِ، غير أنَّنا قد نعتبر هذه المجالس العزائية طبيعية لاتِّصالها الزماني بالواقعة، فهي مثل المآتم التي تقام على المفقودين الأعم من المقتول والميت بشكل طبيعي، وقد نضمُّ إليها المجالس العزائية التي أُقيمت في المدينة المنورة بعد عودةِ الركبِ الهاشمي.

- مثير الأحزان -ابن نما الحلِّي- ص٦٥
- نفس المصدر

ثُمَّ أنَّ الإمامَ زين العابدين (عليه السلام) بدأ مرحلةً تأسيسيةً جديدة، وذلك بالحثِّ على البكاء لمصيبة الإمام الحسين (عليه السلام)، فقد روى الإمام الباقر (عليه السلام) قال: «كان علي بن الحسين (عليه السلام) يقول: أيُّما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين (عليه السلام) حتَّى تسيل على خدِّه بوأه اللهُ تعالى في الجنَّة غرفًا يسكنها أحقابًا، وأيُّما مؤمن دمعت عيناه حتَّى تسيل على خدَّيه فيما مسَّنا من الأذى من عدونا في الدنيا بوأه الله منزل صدق، وأيُّما مؤمن مسَّه أذى فينا فدمعت عيناه حتَّى تسيل على خدِّه من مضاضةٍ أو أذى فينا صرف الله من وجهه الأذى وآمنه يوم القيامة من سخط النار» .

واصل الإمامان الباقرُ والصادِقُ (عليهما السلام) التأسيس وترسيخ ثقافة التفاعل الشعوري مع ما جرى على الإمام الحسين (عليه السلام)، وكان الأمر -كما يبدو- مفتوحًا على طول السنة دون الحصر في ذكرى العاشر من المحرَّم فقط، فعن الكميت بن أبي المستهل قال:

«دخلتُ على سيدي أبي جعفر محمد بن علي الباقر (عليهما السلام) فقلتُ: يا ابن رسول الله، إنِّي قد قلتُ فيكم أبياتًا، أفتأذن لي في إنشادها؟

فقال: إنَّها أيَّام البيض. قلت : فهو فيكم خاصة.

قال: هات.

فأنشأت أقول:

أضحكني الدهر وأبكاني * والدهر ذو صرف وألوان
لتسعة بالطف قد غودروا * صاروا جميعا رهن أكفان

فبكى (عليه السلام) وبكى أبو عبد الله (عليه السلام)، وسمعتُ جاريةً تبكي من وراء الخباء، فلمَّا بلغتُ إلى قولي:

وستة لا يتجازى بهم * بنو عقيل خير فرسان
ثم علي الخير مولاهم * ذكرهم هيج أحزاني

- ثواب الأعمال وعقاب الأعمال للشيخ الصدوق، ت ٣٨١

فبكى ثُمَّ قال (عليه السلام): ما من رجل ذَكَرنا أو ذُكِرنا عندَه يخرج من عينيه ماءٌ ولو مثل جناح البعوضة إلَّا بنى الله له بيتًا في الجنَّة، وجعل ذلك الدمع حجابًا بينه وبين النار.

فلمَّا بلغتُ إلى قولي:

من كان مسرورًا بما مسَّكم * أو شامِتًا يومًا من الآن؟

فقد ذللتم بعد عزٍّ فما * أدفع ضيمًا حين يغشاني

أخذ بيدي، ثُمَّ قال: اللهم اغفر للكميت ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر.

فلمَّا بغلتُ إلى قولي:

متى يقوم الحقُّ فيكم متى * يقوم مهديكم الثاني؟

قال: سريعًا إن شاء اللهُ سريعًا.

ثُمَّ قال: يا أبا المستهل، إنَّ قائمنا هو التاسع من ولد الحسين (عليه السلام) لأنَّ الأئمة بعد رسول الله (صلَّى الله عليه وآله) اثنا عشر، الثاني عشر هو القائم (عليه السلام).

قلتُ: يا سيدي فمن هؤلاءِ الاثنا عشر؟

قال: أوَّلهم علي بن أبي طالب (عليه السلام)، بعده الحسن والحسين (عليهما السلام)، وبعد الحسين علي بن الحسين (عليه السلام) وأنا، ثُمَّ بعدي هذا -ووضع يده على كتف جعفر-.

قلتُ: فمن بعد هذا؟

قال: ابنه موسى، وبعد موسى ابنه علي وبعد علي ابنه محمد، وبعد محمد ابنه علي، وبعد علي ابنه الحسن، وهو أبو القائم الذي يخرج فيملأ الدنيا قسطًا وعدلًا كما مُلِئت ظلمًا وجورًا، ويشفي صدور شيعتنا.

قلتُ: فمتى يخرج يا ابن رسول الله؟

قال: لقد سُئل رسولُ الله (صلَّى الله عليه وآله) عن ذلك، فقال: إنَّما مثله كمثل الساعة لا تأتيكم إلا بغتة» .

وفي توجيه جديد قد نعتبره مرحلة تأسيسية جديدة، حثَّ الإمامُ الباقِرُ (عليه السلام) على اتِّخاذ يوم عاشوراء عطلة عن أعمال الدنيا ومعاشها، فعن مالك الجُهني، عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام)، قال: من زار الحسين (عليه السلام) يوم عاشوراء حتَّى يظلَّ عندَه باكيًا لقي الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة بثواب ألفي ألف حجَّة وألفي ألف عمرة وألفي ألف غزوة، وثواب كل حجَّة وعمرة وغزوة كثواب من حجَّ واعتمر وغزا مع رسول الله (صلَّى الله عليه وآله) ومع الأئمة الراشدين (عليهم السلام).

قال: قلتُ: جُعلتُ فداك، فما لِمَن كان في بُعدِ البلاد وأقاصيها، ولم يمكنه المصير إليه في ذلك اليوم.

قال: إذا كان ذلك اليوم، برز إلى الصحراء، أو صعد سطحًا مرتفعًا في داره، وأومأ إليه بالسلام، واجتهد على قاتله بالدعاء، وصلَّى بعده ركعتين، يفعل ذلك في صدر النهار قبل الزوال، ثُمَّ ليندب الحسين (عليه السلام) ويبكيه ويأمر من في داره بالبكاء عليه، ويقيم في داره مصيبته بإظهار الجزع عليه، ويتلاقون بالبكاء بعضهم بعضًا بمصاب الحسين (عليه السلام)، فانا ضامن لهم إذا فعلوا ذلك علي الله عزَّ وجلَّ جميع هذا الثواب.

فقلتُ: جُعلتُ فداك، وأنت الضامن لهم إذا فعلوا ذلك والزعيم به؟

قال: انا الضامن لهم ذلك والزعيم لمن فعل ذلك.

قال: قلتُ: فكيف يُعزّي بعضُهم بعضًا؟

قال: يقولون: عظَّم اللهُ أجورنا بمصابنا بالحسين (عليه السلام)، وجعلنا وإيَّاكم من الطالبين بثأره مع وليِّه الإمام المهدي من آل محمد (صلَّى الله عليه وآله)، فان استطعت أن لا تنتَّشر يومك في حاجةٍ فافعل، فإنَّه يوم نحسٍ لا تُقضى فيه حاجةٌ وإن قُضيت لم يُبارك له فيها ولم ير رُشدًا، ولا تدَّخرنَّ لمنزلك شيئًا، فإنَّه من ادَّخر لمنزله شيئًا في ذلك اليوم لم يُبارك له فيما يدَّخره ولا يُبارك له في أهله، فمن فعل ذلك كُتب له ثواب الف الف حجَّة والف الف عمرة والف الف غزوة كلُّها مع رسول الله (صلَّى الله عليه وآله)، وكان له ثواب مصيبة كلِّ نبيٍّ ورسولٍ وصدِّيقٍ وشهيدٍ مات أو قتل منذ خلق الله الدنيا إلى أن تقوم الساعة» .

- بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٣٦ - ص ٣٩٠ – ٣٩٢

- كامل الزيارات - جعفر بن محمد بن قولويه - ص ٣٢٥ – ٣٢٧

وقد عظَّم الإمامُ الصادِقُ (عليه السلام) زيارةَ الإمام الحسين (عليه السلام) وقراءةَ المدائح والمراثي، وأفاد (عليه السلام) بأنَّ الأعداء سوف يُقبِّحون ذلك، فعن عبد الله بن حمَّاد البصري، عن أبي عبد الله (عليه السلام)، قال:

«قال لي: إنَّ عندَّكم -أو قال: في قربكم- لفضيلة ما أُوتِي أحدٌ مثلها، وما أحسبكم تعرفونها كُنه معرفتها، ولا تحافظون عليها ولا على القيام بها، وإنَّ لها لأهلًا خاصة قد سُمُّوا لها، وأُعطوها بلا حول منهم ولا قوة، الَّا ما كان من صُنع الله لهم وسعادة حباهم الله بها ورحمة ورأفة وتقدُّم.

قلتُ: جُعِلتُ فداك، وما هذا الذي وصفتَ ولم تُسمِّه؟

قال: زيارة جدِّي الحسين بن علي (عليهما السلام)، فإنَّه غريبٌ بأرض غُربة، يبكيه من زاره، ويحزن له من لم يزره، ويحترق له من لم يشهده، ويرحمه من نظر إلى قبر ابنه عندَّ رجله، في ارض فلاة لا حميم قربه ولا قريب، ثُمَّ مُنِع الحقَّ وتوازر عليه أهلُ الرِدَّة، حتَّى قتلوه وضيَّعوه وعرَّضوه للسباع، ومنعوه شرب ماء الفرات الذي يشربه الكلاب، وضيَّعوا حقَّ رسول الله (صلَّى الله عليه وآله) ووصيَّتَه به وبأهل بيته، فأمسي مجفوًّا في حفرته، صريعًا بين قرابته، وشيعته بين اطباق التراب، قد أوحش قربه في الوحدة والبعد عن جده، والمنزل الذي لا يأتيه الَّا من امتحن الله قلبه للإيمان وعرَّفه حقنا.

فقلتُ له: جُعلتُ فداك، قد كنتُ آتيه حتَّى بُليت بالسلطان وفي حفظ أموالهم، وأنا عندَّهم مشهور، فتركتُ للتقية إتيانه، وأنا أعرف ما في إتيانه من الخير.

فقال: هل تدري ما فضل من أتاه وما له عندَّنا من جزيل الخير؟

فقلتُ: لا.

فقال: أمَّا الفضل، فيباهيه ملائكة السماء، وأمَّا ما له عندَّنا فالترحم عليه كلَّ صباحٍ ومساءٍ.

ولقد حدَّثني أبي أنَّه لم يَخْل مكانُه منذ قُتِل من مصلِّي يُصلِّي عليه من الملائكة، أو من الجنِّ أو من الانس أو من الوحش، وما من شيءٍ الَّا وهو يَغبِطُ زائِرَه ويتمسَّح به ويرجو في النظر إليه الخير لنظره إلى قبره.

ثُمَّ قال: بلغني أنَّ قومًا يأتونه من نواحي الكوفة، وناسًا من غيرهم، ونساءً يندُّبنَه، وذلك في النصف من شعبان، فمن بين قارئ يقرأ، وقاصٍّ يقصُّ، ونادبٍ يندُّب، وقائلٍ يقولُ المراثي.

فقلتُ له: نعم، جُعِلتُ فداك، قد شهدتُ بعضَ ما تصِف.
فقال: الحمدُ لله الذي جعل في الناس من يفد إلينا ويمدحنا ويرثي لنا، وجعل عدوَّنا من يطعن عليهم من قرابتنا وغيرهم يهدرونهم ويُقبِّحُون ما يصنعون» .
ثُمَّ جاء الإمامُ الكاظم (عليه السلام) بمشروعِ جَعلِ العشرة الأولى من المحرَّم عشرةَ حدادٍ وكآبةٍ وعزاء، فعن الإمام الرضا (عليه السلام)، قال: كان أبي (صلوات الله عليه) إذا دخل شهر المحرَّم لا يُرى ضاحكًا، وكانت الكآبة تغلب عليه، حتَّى يمضي منه عشرة أيَّام، فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه وبكائه، ويقول: هو اليوم الذي قُتِل فيه الحسين (صلوات الله عليه) .
ومن بعد الكاظم جاء ولدُه الرضا (عليهما السلام) ليؤكد على اتِّخاذ العاشر من المحرَّم يوم حداد وعزاء، فقال (عليه السلام): «من ترك السعي في حوائجه يوم عاشوراء قضى الله له حوائج الدنيا والآخرة، ومن كان يوم عاشوراء يوم مصيبته وحزنه وبكائه جعل الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة يوم فرحه وسروره، وقرَّت بنا في الجنان عينُه، ومن سمَّى يوم عاشوراء يوم بركة وادَّخر فيه لمنزله شيئًا لم يبارك له فيما ادَّخر، وحُشِرَ يومَ القيامة مع يزيد وعبيد الله بن زياد وعمر بن سعد (لعنهم الله) إلى أسفل درك من النار» .
ترسَّخ في الوجدان الشيعي مبدأ المحافظة على وهج المصيبة العظمى، بل وأصبح ذلك من الضرورات التي لا يمكن التعرُّض لها بغير التسليم التام، فما أفاده ووجَّه إليه الأئمَّةُ (عليهم السلام) يدلُّ بشكل واضح على أنَّ للحزن والبكاء على مصيبة الإمام الحسين (عليه السلام) خصوصية مطلوبة، وبحسب الوارد فإنَّ المعصومين (عليهم السلام) لم يبينوا الغاية من هذا الحث، غير أنَّ الذي يُستشفُّ بُدوًا هو كون القضية عميقة إنسانيًا، وكأنَّهم (عليهم السلام) في حثِّهم يقولون: كيف لمثل ما جرى أن يُنسى؟ بل كيف لمن لا يعيد الذكرى أن يُسمَّى إنسانًا ؟!
ولكنَّ تأمل الحالة قد يفتح النظر على محورية المقابلة الصريحة بين الحقِّ والباطل في الفكر الإنساني الشيعي، فمهما هادن الشيعي وسالم، فهو منجذب ومتطلِّع دائمًا إلى تلك الساعة التي يؤخذ فيها بثأر الإمام الحسين (عليه السلام)، وهو ثأر الحقِّ من الباطل.

- كامل الزيارات - جعفر بن محمد بن قولويه - ص ٥٣٧ – ٥٣٩
- الأمالي - الشيخ الصدوق - ص ١٩١
نفس المصدر

ولذا، فإنَّ ما يبدو لي هو أنَّ حكمة المعصومين (عليهم السلام) كانت في استثمار العاطفة الشيعية أن تكون رابطًا وثيقًا بين الشيعي عقلًا وثقافة وفكرًا، وبين مبدأ الحق الذي قام عليه هذا الوجود وظهر إثباتًا عزيزًا في الإمام الحسين (عليه السلام)، وهذه مسألة في غاية الدقة، خصوصًا بعد الاجتهادات العظيمة من مختلف الثقافات للفصل بين العاطفة والعقل، وهذا أمر يرفضه الإسلام تمامًا، إذ أنَّه يرى العقل والعاطِفة مزيجًا متماسكًا يُظهرُ العاطفةَ عاقلةً والعقل عاطفي عطوف، وهو بحثٌ عميق المعارف واسع الآفاق.

ومن الجهات المهمَّة، أنَّ حثَّ المعصومين (عليهم السلام) شيعتهم على نعي الحسين (عليه السلام) والبكاء عليه لا يُتَصوَّر منفصلًا عن العقيدة والمعرفة، وإلَّا فمجرَّد الحث عليه في ذاك الوقت القريب من الفاجعة لا معنى له ولا يُتصور أثرُه ما لم تكن المعرفة متحقِّقة بسبب القرب الزماني والمعاصرة لنفس المعصومين (عليهم السلام)، وهذا ما يبرر الدعوة إلى أن يكون البكاء اليوم مرتِكزًا على الوعي بالحسين (عليه السلام)؛ فالبُعد الزماني أورث بُعدًا ثقافيًا ومعرفيًا، مما استوجب التركيز في البحث على كيفية استدرار الدمعة وفاءً لحثِّ المعصومين (عليهم السلام)، ولكنَّ الذي حصل في بعض الأحيان هو الانفصال بين الدمعة والمعرفة، مما خلق لنا مشاكل في الموضوع ومشاكل في نقد الموضوع، وهذا ما يحتاج إلى حكمة عالية لمعالجته.

- الإطار الثاني:

لأكثر من قرنين والشيعة يتحرَّكون وجدانًا مع قضية الإمام الحسين (عليه السلام) وما جرى في كربلاء، ولكن على النسق الذي أرسى قواعِدَه الأئمَّةُ الأطهار (عليهم السلام)، حتَّى دخلت السنة ٣٥٢ من الهجرة وتحديدًا في أيَّام العهد البويهي، ليأمر مُعِزُّ الدولةِ الديلمي بمواكب العزاء لتطوف الشوارع.

«في عاشر المحرَّم من هذه السنة (٣٥٢هـ) أمر مُعِزُّ الدولة بن بويه (قبَّحه الله -بحسب تعبير ابن كثير-) أن تُغلق الأسواق وأن يلبس النساءُ المسوح من الشعر وأن يخرجن في الأسواق حاسرات عن وجوههن، ناشرات شعورهن يلطمن وجوههن، ينحن على الحسين بن علي بن أبي طالب، ولم يمكن أهل السنة منع ذلك لكثرة الشيعة وظهورهم، وكون السلطان معهم. وفي عشر ذي الحجة منها أمر مُعِزُ الدولة بن بويه بإظهار الزينة في بغداد وأن تفتح الأسواق بالليل كما في الأعياد، وأن تضرب

الدبادب والبوقات، وأن تُشعل النيران في أبواب الأمراء وعندَّ الشرطة، فرحًا بعيد الغدير -غدير خم-، فكان وقتًا عجيبًا مشهودًا، وبدعة شنيعة ظاهرة منكرة» .

جدير بالذكر أنَّ هذه الفترة كانت فترة أعاظم المتقدِّمين من فقهاء الطائفة، ومنهم الشيخ المفيد (رضوان الله تعالى عليه/ ٣٣٦ – ٤١٣هـ) الذي يقول:

«وفي اليوم العاشر منه مقتل سيدنا أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) من سنة (٦١) إحدى وستين من الهجرة، وهو يومٌ تتجدَّد فيه أحزان آل محمد (عليهم السلام) وشيعتهم، وجاءت الرواية عن الصادقين (عليهم السلام) باجتناب الملاذ، وإقامة سنن المصائب، والإمساك عن الطعام والشراب إلى أن تزول الشمس، والتغذي بعد ذلك بما يتغذَّى به أصحابُ أهل المصائب، كالألبان وما أشبهها دون الملذ من الطعام والشراب. ويستحب فيه زيارة المشاهد، والإكثار من الصلاة على محمد وآله (عليهم السلام)، والابتهال إلى الله تعالى باللعنة على أعدائهم» .

فسِمَةُ هذا الإطار، إضافة للإطار الأوَّل، تسيير المواكب العزائية في الطرقات «ففي (سنة ٣٥٢ هـ) أمر (معزُّ الدولة البويهي) بإقامة العزاء لسيد الشهداء الحسين بن علي (عليه السلام) في شهر محرَّم... وأمر الناس ببغداد أن يُغلِقوا دكاكينهم في العاشر منه ويعطِّلوا الأسواقَ والبيعَ والشراءَ، وان يُظهِروا النياحة، ويلبسوا قباء عملوها بالمسوح ، وأن يخرج الرجال والنساء، لاطمي الصدور والوجوه، وكانوا بهذه الحالة يأتون مشهد الإمامين الكاظمين (عليهما السلام) يُعَزُّونَهما بالحسين (عليه السلام).

وبقيت هذه السُنَّة في العراق مدَّة الحكم البويهي. العزاء الحسيني الذي يقام اليوم من آثار تلك السُنَّة الكريمة» .

«وهكذا كان معزُّ الدولة البويهي قد أمَرَ بالضرب على الصدور علنًا بهذه الكيفية التي نشاهدها اليوم، وأيَّده العلماء والفقهاء في عصره إلى يومنا هذا» .

- البداية والنهاية - ابن كثير - ج ١١ - ص ٢٧٦

- مسار الشيعة -الشيخ المفيد- ص٤٣

- اللباس من الشعر/ ثوب الراهب

- تاريخ الإمامين الكاظمين – الشيخ جعفر نقدي- ص٥٥/ بحسب تاريخ النياحة على الإمام الشهيد الحسين بن علي (عليهما السلام) للسيد صالح الشهرستاني ج١ - ص١٤٧

- تاريخ النياحة على الإمام الشهيد الحسين بن علي (عليهما السلام) -السيد صالح الشهرستاني- ج١ – ص١٤٧

وبدأت الإحياءات العاشورائية بشكل عام بعد الدولة البويهية متردِّدة بين ظهور وتواري، بحسب الحكومات المتعاقبة، فمتى ما لان الجانب للشيعة ظهرت، ومتى ما تصلَّب ضدَّها توارت، واستمر الحال حتَّى جاءت الدولتان الصفوية والقاجارية.

- الإطار الثالث:

خرج الإحياء في العهد الصفوي وبشكل صريح من المآتم المغلقة إلى الشوارع والطرقات، ويُعبِّرُ بعضُ الباحثين عن مرحلة الإحياء العاشورائي في العهد الصفوي بأنَّها مرحلةُ «تحوُّل جذري» ؛ إذ «تبدأ العشرةُ الأولى من محرَّم، وتُسمَّى عاشوراء، بهذا اليوم (الأوَّل من محرَّم)، ويقيم الإيرانيون طوال هذه الفترة المآتم ومجالس العزاء، ويُحيون ذِكرى الحسين، ابن علي وفاطمة، وهي ابنة نبيّ الإسلام الوحيدة، ويَرْثُونَ نهايته المحزنة، وهو المقدَّسُ لدى جميع المسلمين، لكنَّه الإمام الحق عندَّ الشيعة، وينحدر المِلكُ الفعليُّ من سلالته، وتقاليد العزاء تكون على النحو التالي:

يظهرُ الجميع بمظهر الحزن والألم، مرتدين زي الحداد باللون الأسود، اللون الذي لم يُستعمل في المناسبات الأخرى، ولا يحلقُ أحدٌ رأسَه أو ذقنَه ولا يستحم، ويجتنبون المعاصي والمنكرات، وحتَّى الملذَات..

وتجول جماعة أخرى الساحات والأزِقَّة وبين بيوت الناس، عراةً، إلَّا من قطعة قماش سوداء تستر عوراتهم، طالين أجسادهم بمادَّة سوداء كالَّتي نستعملها لطلي غلاف السيوف أو المعادن الأخرى، ليُعبِّروا بذلك عن مدى حزنهم وألمهم لمصاب الحسين، وترافق هؤلاءِ مجموعةٌ أخرى عراة، طالين أجسادهم باللون الأحمر، دلالة على الدماء المسفوكة والأعمال الشنيعة يوم عاشوراء، وينشد جميعهم ألحانًا حزينةً في ذكر الحسين والمصائب التي حلَّت به، حاملين قطعتي خشب أو عظام بأيديهم، فيضربون إحداها بالأخرى؛ لتصدر أصواتًا حزينةً، كما يقومون بحركة تُشبِه الرقص تدلُّ على حزنهم العميق...

وحين يحلُّ العاشِرُ من محرَّم، أي يوم قتل الحسين، تنطلق مواكب كبيرة من كلِّ أنحاء إصفهان...، حاملين الأعلام والبيارق، واضعين أصنافًا من أسلحة وعددًا من العمائم على جيادهم، مصطحبين عددًا من الجِمال تحملُ كلٌّ منها صندوقًا فيه ثلاثة أو أربعة أطفال؛ للتذكير بأطفال الحسين الذين أُسِروا في ذلك اليوم، كما تحملُ كلٌّ مجموعة تابوتًا ملفوفًا بمخمل أسود

- بحث بعنوان: تاريخ المأتم الحسيني من الشهادة وحتَّى العصر القاجاري -د. محمَّد صالح الجويني-/ في كتاب: الشعائر الحسينية، التاريخ، الجدل والمواقف -مجموعة باحثين- ص٤٨

وعليه سيف وعمامة خضراء عادةً، وحول التابوت أصناف من الأسلحة -كما شرحتُ مسبقًا-، على عدَّة أطباق، تُحمل فوق رؤوس عدد من الأفراد الذين يقفزون ويدورون على صوت الطبل والناي، فيدور الطبق معهم ويصنع منظرًا جميلًا» .

وهكذا تحركَّ الإحياء العاشورائي في ضمن هذه العناوين الصريحة من مواكب وتصويرات وما نحو ذلك، حتَّى جاءت الدولة القاجارية لتوسِّع وترسِّخ الإحياء التمثيلي لعاشوراء بفتوى الميرزا القمّي (رحمه الله) بجواز ذلك، وهذا ما ميَّز حقبة القاجاريين في ميدان إحياء ذكرى عاشوراء، وقد جاء في بعض التقارير أنَّه «راجت التشابيه بشكل لا يُمكن لأحدٍ من الأعيان التغاضي عنه، على الرغم من تكاليفها الباهظة؛ إذ عليهم القيام بضيافة الحضور بالشراب طوال فترة المسرحية، وبعشاء ملكي بعد المسرح، أضف لذلك أجور الممثلين» ، «وأدى رواج هذا التقليد إلى انحسار الأنموذج القديم، أي مجالس النعي والرثاء، وتعدَّدت الأسباب في تفوق التشابيه على المآتم القديمة، لكنَّ أهمها طبيعة التشابيه المسرحية» .

تجدر الإشارة هنا إلى أنَّ حُكمَ الدولة الصفوية امتدَّ ما بين ١٥٠١ – ١٧٢٢م، أمَّا القاجارية فما بين ١٧٧٩ – ١٩١٩م، وكان الإطار العام لإحياء عاشوراء تُشكِّله الحالة التفاعلية الجماهيرية كغايةٍ وُظِّفت لها مجموعةٌ من الفعاليات التي إمَّا أن تكون ممضية من الفقهاء كافة، أو من بعضهم، ولكنَّ الذي وقفتُ عليه هو الميرزا القمّي وفتواه في جواز التشابيه أيَّام العهد القاجاري، ومن المعلوم أنَّ الدولة الصفوية قد عُرِفت باحتضانها ودعمها لجملة من فقهاء الطائفة كالمحقِّق الكركي والشيخ المجلسي والحرِّ العاملي والسيد هاشم البحراني وغيرهم، ومن الراجح أنَّ المظاهر العاشورائية كانت ممضاة من قِبل هؤلاء الأكابر، ولكنَّنا نقفُ بعد ذلك على جواب الشيخ محمَّد حسين النائيني (١٨٥٦ – ١٩٣٦م) التالي:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إلى البصرة وما والاها:

بعد السلام على إخواننا الأماجد العظام أهالي القطر البصري ورحمة الله وبركاته.

- بحسب المصدر السابق: سفرنامه بيتر ود لاواله (رحلة بيتر ود لاواله): ١٢٢، الكتاب الرابع، ترجمة: شجاع الدين شفا، نشر علمي وفرهنكي، ١٣٧٠ش/١٩٩١م، ط٢

- بحسب المصدر السابق: يعقوب إدوارد بولاك، إيران وإيرانيان: ٢٨٦، ترجمة: كيكاوس جهانداري، طهران، خوارزمي، ١٣٦١ش/١٩٨٢م.

- بحسب المصدر السابق: روح الله خالقي، سركذشت موسيقي إيران (تاريخ الموسيقى الإيرانية) ١:٣٣٦، طهران، صفي عليشاه، ١٣٧٦ش/١٩٩٧م؛ ودين ودولت در إيران: ٢١٢؛ وتعزية، نيايش ونمايش در إيران (التشابيه، المناجاة والتمثيل في إيران): ١٩، إعداد: بيتر تشلوفسكي، ترجمة: داوود حاتمي، طهران، علمي فرهنكي، ١٣٦٧ش/١٩٨٨م؛ ومردم وديني هاي إيران (سفرنامه): ٢٠٠

قد تواردت علينا في (الكرَّادة الشرقية) برقياتكم وكتبكم المتضمنة للسؤال عن حكم المواكب العزائية وما يتعلَّق بها، إذ رجعنا بحمده سبحانه إلى النجف الأشرف سالمين، فها نحن نُحَرِّرُ الجواب عن تلك السؤالات ببيان مسائل:

الأولى: خروج المواكب العزائية في عشرة عاشوراء ونحوها إلى الطرق والشوارع ممَّا لا شبهة في جوازه ورجحانه وكونه من أظهر مصاديق ما يُقام به عزاء المظلوم، وأيسر الوسائل لتبليغ الدعوة الحسينية إلى كلِّ قريب وبعيد، لكنَّ اللازم تنزيه هذا الشعار العظيم عمَّا لا يليق بعبادة مثله، من غناءٍ أو استعمال آلات اللهو والتدافع في التقدم والتأخر بين أهل محلّتين، ونحو ذلك، ولو اتَّفق شيءٌ من ذلك، فذلك الحرام الواقع في البين هو المحرَّم، ولا تسري حرمتُه إلى الموكب العزائي، ويكون كالناظر إلى الأجنبية حال الصلاة في عدم بطلانها.

الثانية: لا إشكال في جواز اللطم بالأيدي على الخدود والصدور حدَّ الإحمرار والإسوداد، بل يقوى جوازُ الضرب بالسلاسل أيضًا على الأكتاف والظهور إلى الحدِّ المذكور، بل وإن تأدَّى كل من اللطم والضرب إلى خروج دم يسير على الأقوى، وأمَّا إخراج الدم من الناصية بالسيوف والقامات فالأقوى جواز ما كان ضرره مأمونًا، وكان من مجرد إخراج الدم من الناصية بلا صدمة على عظمها ولا يتعقَّب عادةً بخروج ما يضرُّ خروجُه من الدم، ونحو ذلك، كما يعرفه المتدرِّبون العارفون بكيفية الضرب، ولو كان عندَّ الضرب مأمونًا ضرره بحسب العادة، ولكن اتَّفق خروج الدم قدر ما يضر خروجه لم يكون ذلك موجباً لحرمته ويكون كمن توضَّأ أو اغتسل أو صام آمنًا من ضرره ثُمَّ تبين ضررُه منه، لكنَّ الأولى، بل الأحوط، أن لا يقتحمه غيرُ العارفين المتدربين، ولا سيَّما الشبَّان الذين لا يبالون بما يُورِدُون على أنفسهم لِعِظَم المصيبة وامتلاء قلوبهم من المحبَّة الحسينية، ثبَّتهم الله تعالى بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

الثالثة: الظاهر عدم الإشكال في جواز التشبيهات والتمثيلات التي جرت عادةُ الشيعة الإمامية باتِّخاذها لإقامة العزاء والبكاء والإبكاء منذ قرون، وإن تضمَّنت لبس الرجال ملابس النساء على الأقوى، فإنّا، وإن كنَّا مستشكلين سابقًا في جوازه وقيَّدنا جواز التمثيل في الفتوى الصادرة منَّا قبل أربع سنوات، لكنَّا لمَّا راجعنا المسألة ثانيًا اتَّضح عندَّنا أنَّ المحرَّم من تشبيه الرجل

بالمرأة هو ما كان خروجًا عن زيّ الرجال رأسًا وأخذًا بزيّ النساء دونما إذا تلبس بملابسها مقدارًا من الزمان بلا تبديلٍ لزيّه كما هو الحال في هذه التشبيهات، وقد استدركنا ذلك أخيرًا في حواشينا على العروة الوثقى.

نعم، يلزم تنزيهها أيضًا عن المحرَّمات الشرعية، وإن كانت على فرض وقوعها لا تسري حرمتها إلى التشبيه، كما تقدَّم.

الرابعة: الدمَّام المُستعمل في هذه المواكب ممَّا لم يتحقَّق لنا إلى الآن حقيقته، فإن كان مورد استعماله هو إقامة العزاء وعندَّ طلب الاجتماع وتنبيه الراكب على الركوب وفي الهوسات العربية نحو ذلك، ولا يستعمل فيما يطلب فيه اللهو والسرور، وكما هو المعروف عندَّنا في النجف الأشرف فالظاهر جوازه، والله العالم.

٥ ربيع الأول سنة ١٣٤٥هـ

حرَّره الأحقر

محمد حسين الغروي النائيني

يبدو من رسالة الشيخ النائيني (رحمه الله) أنَّ مثل هذه الاستفتاءات ليست حديثة العهد، خصوصًا مع الوقوف على رسالة التنزيه لأعمال الشبيه(١٣٤٦هـ) للسيد محسن الأمين (رحمه الله) والتي عارض فيها جملةً من مظاهر الإحياء في عاشوراء وأنكر عليها، منها:

- الكذب بذكر الأمور المكذوبة المعلوم كذبها وعدم وجودها في خبر ولا نقلها في كتاب وهي تتلى على المنابر وفي المحافل بكرة وعشياً ولا من منكر ولا رادع.
- التلحين بالغناء الذي قام الإجماع على تحريمه سواء كان لإثارة السرور أو الحزن.
- إيذاء النفس وإدخال الضرر عليها بضرب الرؤوس وجرحها بالمدى والسيوف حتى يسيل دمها وكثيراً ما يؤدي ذلك إلى الإغماء بنزفالدم الكثير وإلى المرض أو الموت وطول برء الجرح.

وبضرب الظهور بسلاسل الحديد وغير ذلك.

- استعمال آلات اللهو كالطبل والزمر (الدمام) والصنوج النحاسية وغير ذلك.
- تشبّه الرجال بالنساء في وقت التمثيل.
- إركاب النساء الهوادج مكشّفات الوجوه وتشبيههن ببنات رسول الله(ص) وهو في نفسه محرم لما يتضمنه من الهتك والمثلة فضلاً عما إذا اشتمل على قبح وشناعة أخرى.
- صياح النساء بمسمع من الرجال الأجانب ولو فرض عدم تحريمه فهو معيب شائن منافٍ للآداب والمروءة يجب تنزيه المآتم عنه.
- الصياح والزعيق بالأصوات المنكرة القبيحة.

ثُمَّ عقَّب:

«فإدخال هذه الأشياء في إقامة شعائر الحزن على الحسين(ع) من تسويلات إبليس ومن المنكرات التي تغضب الله ورسوله(ص) وتغضب الحسين(ع) فإنه قُتل في إحياء دين جده (ص) ورفع المنكرات فكيف يرضى بفعلها لا سيما إذا فُعلت بعنوان أنها طاعة وعبادة».

وبهذه الرسالة قابل السيد الأمين رسالةَ الميرزا النائيني، ويظهر من ذلك أنَّ رسم الأطر من بعد الإطار الأوَّل لم يكن محلَّ وفاق بين فقهاء الطائفة.

خاتمة

انطلقت المآتم والمواكب الحسينية بروحية البقاء لا غير، فكانت تخبو وتتراجع إذا حكم أعداؤها وشهروا سيف الحقد عليها، وبالرغم من تراجعها إلَّا أنَّها تبقى موجودة في حدود ضيقة تنطلق منها مع كلِّ فسحة، وذلك لأنَّ الإحياء العاشورائي -كما أرى- هو الجبهة التي أرادها أهل البيت (عليهم السلام) للشيعة حتَّى ظهور بقيَّة الله (أرواحنا فداه)، وهي جبهة فاردة في قبال كل الجبهات في هذه الدنيا، وبالتالي، وإضافة لكونها الجبهة الشيعية الخاصَّة، فهي الهوية العزيزة للشيعة، بل هي الفصل القريب لنوعهم عن باقي الأنواع تحت جنس الإسلام، فتدخل في تعريف الشيعي بالحدِّ التام.

وهنا مساهمة تأسيسية على طريق التصحيح:

في تصوري أنَّ مظاهر الإحياء ترجع إلى أمرين رئيسيين:

الأوَّل: فهم الغاية من التأسيس الأوَّل على يد المعصومين (عليهم السلام).

الثاني: البُعد النفسي والاجتماعي في جانب التحدِّيات وخصوصًا على مستويات الهوية والوجود.

لذا، فإنَّ ما أراه بالنسبة لنقد أو معارضة مظهر أو أكثر من مظاهر الإحياء العاشوري، أنَّه ينبغي أن يُبنى على قاعدة من الرؤيتين الفقهية والنفسية الاجتماعية، وإن استقلت إحداهما عن الأخرى في مقام الفعل والمباشرة، فما أعتقده هو أنَّ النتائج من المستبعد أن تكون إيجابية آمنة.

كتبها حامدًا ربّه

السيد محمَّد بن السيد علي العلوي

١٦ من المحرَّم ١٤٣٨ هجريَّة

١٨ تشرين الأول ٢٠١٦ ميلادية

البحرين